

العامّة في العصر العباسي

132- 658هـ/ 749- 1258م

الأستاذة: أحلام يوسف
جامعة 8 ماي 45 قالمة

الملخص:

تميز المجتمع العباسي بطبقاته الاجتماعية المتباينة، وكان من أهم هذه الطبقات طبقة العامة والتي لعبت دورا هاما في الحياة الاجتماعية للمجتمع العباسي، وقد تشكلت من مختلف الأجناس البشرية التي ضمتها الخلافة العباسية. وتشكل دراسة طبقة العامة أهمية كبيرة لأنها تسلط الضوء عن أحوال فئة اجتماعية تشكل النسبة الغالبة للمجتمع العباسي في بغداد، وهنا تكمن أهمية هذا البحث.

Summary :

The Abbasside society was characterised by its different social classes. Among these classes was the class of the " General public " which played an important role in the social life of the Abassid community. This class consisted of various human races that the Abassid State included. Studying the " general public" class is of a great importance as it sheds the light on the situation of a Social group that represented the vast majority of the Abassid society in Bagdad, and here lies the importance of such research work.

المقدمة:

تشكلت طبقة العامة من مختلف الأجناس التي ضمتها الخلافة العباسية من عرب وديلم وترك وكرد. ولم يكن لها مكانة كبيرة في المجتمع بسبب فقر غالبيتها من جهة، وجهلهم بالأمور الثقافية والدينية من جهة أخرى. وقد أطلق عليهم المؤرخون تسميات متعددة كالسفلة والغوءاء والسقاط، والجماهير والدهماء والأوباش، وكان طعامهم ولباسهم ودورهم يتميز بالبساطة. وقد امتن هؤلاء التجارة أو الصناعة، فالتجار تعاطوا بيع المواد الاستهلاكية لسد حاجات الناس اليومية وتركوا تجارة السلع الثمينة والمجوهرات لأولئك الذين لهم ارتباط بالخليفة وحاشيته ورجالات الدولة، وأما أرباب الحرف والصناع فكانوا يعيشون دون مستوى التجار لأن مواردهم محدودة فقد كان متوسط أجر العامل في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي درهما ونصف في اليوم لصانع الزجاج ثم ازداد في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وكان إيراد أصحاب الحوانيت لا يتعدى 300 درهم في الشهر.

وبالرغم من أن المصادر التي بحثت في العصر العباسي كثيرة ومتنوعة، إلا أن أغلبها لم يتناول النواحي المتعلقة بالجوانب الاجتماعية إلا بإشارات عابرة وكأنها من الأمور البديهية والمعروفة، لذلك سنحاول من خلال هذا البحث استنباط المعلومات والحقائق التاريخية من المصادر التي تيسر الحصول عليها حول طبقة من طبقات المجتمع العباسي والتي لعبت دورا كبيرا في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولة العباسية. حيث سنحاول الوقوف على مدلول ومفهوم العامة ومختلف الآراء حوله، كما سوف نحاول معرفة فئات العامة والدور الذي قامت به كل فئة في المجتمع العباسي، وسنعرض كذلك لدور العامة وكيفية تجهيزهم لدورهم، كما سنتحدث عن طعام هذه الفئة في المجتمع العباسي.

أولاً: مفهوم العامة :

تتفق معظم التعريفات بأن العامة هي خلاف الخاصة، والخاصة بالمعنى الضيق يمكن أن تعني الخليفة وأصحابه من بني العباس والعرب وكبار رجال الدولة، إلا أنها نمت وتضخمت حتى ضمت كل المشاركين في السلطة، لاسيما بعد أن كبرت طبقة أصحاب النفوذ في مراحل ضعف الخلافة في بغداد، حتى أصبحت تعني النخبة¹.

وفي تحديد العامة قال المنصور لأحد خاصته: "قد عرفتني سوقة وخليفة"²، وعرف الصفدي³ العامة بأنها: "خلاف الخاصة، قيل ذلك لما كانوا كثيرين لا يحيط بهم البصر فهم في ستر عنه"، ومن معاني العامة قيل: "السوقة"⁴، وهم كما قال الحريري⁵: "ليسوا أهل السوق، بل هم الرعية، سموا بذلك لأن الملك يسوقهم إلى إرادته، فيقال: رجل سوقة وقوم سوقة"، وتبني الجوهرى⁶ مثل هذا التعريف واعتبر أن السوقة من الناس هم غير السلطان، وأطلقت على العامة ألفاظ كثيرة، فهم أصحاب الاهانات، وهم أبناء الأندال والسفل، والسقاط⁷.

وقد قسم ابن أبي الربيع⁸ مرتبة العامة إلى نوعين: أحدهما يضم التجار وأهل المراتب وهم يحصلون العيش من أحسن وجوهه، ويتميزون بالاكتمال الدائم المعتدل، وبإظهار العدل في المعاملات وإظهار السيرة الحسنة، ويضم ثانيهما السوقة والجمهور، وهم في أدنى المراتب مبذولة لكل دناءة نفس.

ولم تكتف المصادر بتصنيف العامة الطبقي، بل رسمت لها إطارا خاصا يبين قدراتها العقلية والفكرية وواقعها الأخلاقي، فالعامي يقابله العالم، والعامة متهمة دائما بقدراتها العقلية: "إن قلت لا عقول لهم كنت صادقا، وإن قلت لهم أشياء شبيهة بالعقول كنت صادقا"، والعامة متهمة بمعارفها، فالفهم السيء غاية السفه، إذ هو شبيه برتهم في نقصهم، ونفوس العامة خبيثة، وعقولها رديئة، ومعارفها خسيصة، لا يجوز لأربابها أن ينشقوا ربح الحكمة، ولا أن يتناولوا إلى غرائب الفلسفة، وهم أقل شكا وأكثر تسرعا، ولولا المتكلمين لهلك العوام واختطفوا واسترقوا⁹.

وقد كان اصطلاح الخاصة والعامة مستعملين في تلك الفترة لذلك نجد أن هناك لدار الخلافة العباسية ببغداد باب خاص مطلق على دجلة يدخل منه الخاصة سمي باسم باب الخاصة¹⁰، وهناك بابا يسمى باب العامة¹¹، ويقول الصفدي¹² أن سبب تسميتهم بالعامة هو كثرتهم وعدم إحاطة البصر بهم، ويطلق الخوارزمي¹³ عليهم اصطلاح السوقة

¹ - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ج1، ص266

² - البلاذري، أنساب الأشراف، تح سهيل زكار، رياض زركلي، بيروت، 1417هـ/1996، القسم 3، ص197

³ - نكت الهميان في نكت العميان، تح أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، القاهرة، 1329هـ/1911، ص10

⁴ - البلاذري، المصدر السابق، ق3، ص197

⁵ - درة الغواص في أوهم الخواص، بعناية هنريك شوربك، ليز، 1871، ص198

⁶ - الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، مراجعة محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، 1430/2009، ج4، ص1499

⁷ - فهي سعد، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة: دراسة في التاريخ الاجتماعي، دار المنتخب العربي، ط1،

بيروت، 1413هـ/1993م، ص139

⁸ - سلوك المالك في تدبير الممالك، بعناية ناجي التكريتي، بيروت، 1978، ص123

⁹ - أبو يعلى الفراء، المعتمد في أصول الدين، بعناية وديع زيدان حداد، بيروت، 1974، ص26. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح أحمد أمين وأحمد الزين، لجنة التأليف، القاهرة، 1942، ج1، ص25. الجاحظ، الحيوان، تح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1947، ج6، ص200-220. فهي سعد، المرجع السابق، ص139

¹⁰ - الصابي، رسوم دار الخلافة، تح ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، 1964، ص76

¹¹ - ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتح محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب

العلمية، ط1، بيروت، 1992، ج11، ص82. الصابي، رسوم دار الخلافة، تح ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، 1964، ص76

¹² - نكت الهميان في نكت العميان، ص10

¹³ - مفاتيح العلوم، تح نبي النجار، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، 1993، ص157

باعتباره من معاني العامة، وأطلق الطبري¹⁴ عليهم تسمية الدعار والشطار والغوغاء والرعاع وفتيان بغداد والفتيان العيارين.

وذكر ياقوت الحموي¹⁵ أنّ البعض ألف كتباً عنهم فقد ذكر أنّ الشاعر الصيمري المتوفى سنة 275هـ/888م ألف كتاباً أسماه دعوة العامة وكتاباً آخر سماه مساوي العوام وأخبار السفلة والأغنام¹⁶، ويبدو أنّ هناك مدلول ثقافي لمن يكون من العامة أو عامي فقد ذكر التنوخي¹⁷ أنّ التاجرا بن الجصاص وهو من أشهر تجار بغداد في بداية القرن الرابع الهجري وصاحب الثروات الطائلة بأنّه رقيق عامي وذلك لعدم التزامه بأداب الكلام في حضرة الخليفة المكتفي. ولكن لا يعني هذا أنّ جميع التجار كانوا من نوع ابن الجصاص بل إنّ بعضهم كانوا من أصحاب البر والإحسان فقد ذكر التنوخي¹⁸ نفسه أنّ تاجراً بغدادياً اسمه ابن رزق الله قد تبرع بأكسية تدفع لأسرى المسلمين عند البيزنطيين لتدفعهم من البرد يدفع ثمنها ابن رزق الله في الإنفاق على بناء كنيسة في الدولة العباسية. ويمكن تلخيص جملة المواقف من العامة بأنّهم سواد النّاس الذين لم يكونوا يتمتعون بأي سلطة، والذين كانوا يعملون في شتى حقول الكسب، وأنّهم كانوا يعيشون في عالم خاص له أبعاده الفكرية والدينية التي تتدنّى عن مستوى عالم الخاصة¹⁹.

ثانياً: فئات العامة:

1- التجار: اختلف المؤرخون في تصنيف التجار هل هم من الطبقة الخاصة أم من الطبقة العامة فالصّابي²⁰ مثلاً عند كلامه عن حمامات بغداد يقول أنّ التجار هم من الطبقة الخاصة شأنهم شأن الخلفاء والوزراء والكتاب والأمراء والأشراف والقضاة، وأمّا ابن خلدون²¹ فقد اعتبر طبقة التجار من الطبقة العامة وإن كانوا أصحاب أموال كثيرة، كما اعتبرهم من أدنى طبقات المجتمع العراقي خلقاً وخاصة تجار التجزئة وذلك لاستخدامهم الغش والخديعة بالكلام والحلف بالأيمان الكاذبة على أثمان البضائع. فقد كان أهل الطبقة الخاصة ينفرون من احتراف التجارة نظراً لكثرة اتصال هذه الفئة بعامة الشعب وامتلاك بعضهم الثروة كان سبباً في الخروج على آداب المجتمع بالاستهتار والمجون فمثلاً عندما عزم يحيى البرمكي على الاشتغال بالتجارة نصحه أحد التجار قائلاً: (أنت شريف وابن شريف وليست التجارة من شأنك)²². وأمّا الجاحظ²³ فله رأي آخر في التجارة والتجار حتّى أنّه ألف رسالة سمّاها (مدح التجار وذم عمل السلطان) حيث دافع فيهما عن التجار ومكانتهم وأغلب الظن أنّه ألّفها دفاعاً عن محمد بن عبد الملك الزيات بوصفه ممّن ينتمون إلى طائفة التجار.

¹⁴ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1977، ج8، ص443

¹⁵ - معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ج6، ص2422

¹⁶ - الغنمة: عجمة في النطق، ورجل أغتم وغتم لا يفصح شيئاً، وقوم غتم وأغنام. أنظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د ت)، م1، ص13.

¹⁷ - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح عبود الشالحي، دار صادر، بيروت، 1971، ج2، ص316

¹⁸ - نفسه، ص56

¹⁹ - فہمی سعد، المرجع السابق، ص140

²⁰ - رسوم دار الخلافة، ص21

²¹ - المقدمة، تح خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للنشر، ط2، بيروت، 1988، ص496

²² - كتاب الوزراء والكتاب، تح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، مصر، 1980، ص186، إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، ط1، بيروت، 1989، ص225

²³ - الرسائل، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت)، ص18

فالتجارة على هذا النحو محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء، وكانت جماعات التجار وإن كثرت لديهم الأموال بسبب ما يجنونونه من أرباح تشكل طبقة من أدنى طبقات المجتمع العراقي خلقا خاصة تجار التجزئة لسوء أخلاقهم ولذلك كان أهل الرئاسة ينفرون من الاحتراف بالتجارة، وهناك من التجار من يسلم من هذه الطباع الشرسة لتعامله مع أهل الثروة وحاشية الدولة²⁴.

ويستلزم الاشتغال بالتجارة احتكاكا مباشرا بالسوق والرعاع ومعرفة بمعاملة أمثالهم مع علم بأحوال الأسواق وما يروج فيها من سلع وجرة كافية بسبب تعريض المال للضياع والتبديد إذا ما رخت الأسعار، ومعرفة بالحساب كما تستلزم الانتقال والرحلة وتكلف مشقة حمل السلع ثم بيعها بأغلى الأثمان، والتجار نوعان نوع يعمل في السلع الضرورية وهؤلاء يتعاملون مع الأهالي والعامّة، ونوع يتجر في السلع الكمالية وأدوات الزينة والتحف والمجوهرات والمصوغات وأفخر الثياب والرقيق وهؤلاء يتعاملون مع أولي السلطان والأعيان²⁵.

وأما تقسيم التجار حسب تخصصهم التجاري في العصر العباسي فهم ثلاثة أنواع: تجار الخزان الذي يقومون بشراء السلعة وخزنها واحتكارها إلى حين ارتفاع ثمنها والتجار الركاضين الذين يسافرون لجلب السلعة من البلدان الأخرى وكان أول ما يقوم به التاجر معرفة نوع التجارة التي يجب جلبها ومعرفة مخاطر الطريق والنوع الثالث هو التاجر المجهز المستقر في السوق ببلده²⁶.

وإنه لم يقتصر التجار على حرفة البيع والشراء بل ظهر منهم أدباء ورعاة وجغرافيون مثل الأديب الوزير العباسي محمد بن عبد الملك الزيّات، والتاجر سليمان الذي ذكر في رحلته أنّ خانقو (كانتون) كانت مجتمع تجارات العرب وأهل الصين، وابن حوقل التاجر الموصلّي البغدادي صاحب كتاب صورة الأرض الشهير²⁷.

وقد اتخذ للتجار مراكز تجارية مهمة في داخل العراق للقيام بأعمالهم التجارية أهمها البصرة التي كانت تعتبر "مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها"، حيث كانت تصدر عن طريقها كافة السلع والبضائع إلى سائر أقطار الأرض، كما كانت تأتيا المراكب التجارية المحملة بالسلع المختلفة²⁸.

ثمّ الأبلّة وهي ميناء صغير إلّا أنّ الحركة التجارية كانت نشطة فيها تقع عند فم نهر البصرة الذي يتفرع منه نهر الأبلّة حيث كانت السفن التجارية ترسو فيه، والأبلّة مدينة عامرة بالسكان بها أسواق صالحة²⁹، وكان للتاجر الكبير جهابذة وحساب وكتاب، وكانت لهم معاملات مع التجار الأجانب وكانت ترد إليهم البضائع وبييعونها في الأسواق، كما كان التبادل التجاري يجري داخل العراق³⁰.

وقد كانت الحكومة تشرف على التجار وتراقبهم خشية التلاعب والتدليس في المعاملات التجارية، لذلك فقد أسست لهم ولأول مرة نقابة مسؤولة عن هذه الأمور كان لها رئيس يدعى رئيس التجار، كما كان من مهمة المحتسب مراقبة الأسواق ومنع الغش والتدليس³¹.

ومن مظاهر اهتمام الحكومة في العصر العباسي الأول بالتجارة أنّ أبا جعفر المنصور (136-158هـ/754-775م) أمر عند شروعه في بناء بغداد سنة 145هـ/762م أن تقطع لهم بعض الأراضي لينزلوا فيها، ويبدو أن تلك الأراضي كانت

²⁴ - ابن خلدون، المقدمة، ص 917

²⁵ - إبراهيم سلمان الكروي، ص 73

²⁶ - الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، تج البشري الشوربي، مكتبة الكليات الأزهرية، ط 1، حسين أمياي وشركاه، القاهرة، (د ت)، ص 70

²⁷ - فهد عبد الرزاق سعد، ص 120

²⁸ - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط 2، ليدن، 1327هـ/1909م، ص 116. اليعقوبي، البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1982، ص 323

²⁹ - المقدسي، المصدر السابق، ص 118

³⁰ - التنوخي، المصدر السابق، ص 246. فهد عبد الرزاق سعد، المرجع السابق، ص 121

³¹ - ابن طيفور، كتاب بغداد المستوعب لفترة خلافة المأمون، دار الجنان، بيروت، (د ت)، ص 12-13

تقع في منطقة الكرخ استنادا إلى نزولهم في هذه المنطقة. كما أمر أيضا أن تكون لكل "تجار وتجارة شوارع معلومة وأسواق بأنواع السلع في تلك الشوارع وحوانيت وعراض ولا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه"³².

وإنه كثيرا ما كانت الحكومة العباسية تمد يد العون للتجار عند حدوث بعض النكبات التي يتعرضون لها، فذكر أنه في سنة 225هـ/840م عندما احترق الكرخ وشبت النار في الأسواق عوض المعتصم (227-232هـ/842-847م) التجار في هذا الحادث بأن وهبهم خمسة آلاف ألف درهم³³.

وبهذا ازدهرت التجارة في العراق في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. وكانت بغداد أهم مراكز الدولة العباسية التجارية، وحين دخل البويهيون بغداد حاولوا تنشيط التجارة، وتذليل العقبات والصعاب التي تعترضها بضبط الأمن ومراقبة التجارة، والحد من جشع التجار والضرب على أيدي المتلاعبين بالأسعار والمحتكرين للمواد الغذائية³⁴.

وقد ظلت حالة التجار في العصر البويهي تتقلب بين الركود والانتعاش تبعا لظروف التجارة نفسها. وانعكاس الأوضاع السياسية عليها هدوءا واضطرابا، وقد مضى التغلب البويهي على كثير من مظاهر البذخ والترفع التي كانت تسود البلاط العباسي، فقلّت أرباح التجار الذين كانوا يزودون قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة بمناجرهم، ولم يجدوا ما يشجعهم على البقاء في بغداد فرحلوا عنها إلى الشام وغيرها من الولايات الإسلامية³⁵.

2- الصناع والطوائف الحرفية: وهم طائفة من الناس وصفوا بأنهم يعملون بأبدانهم وأدواتهم في مصنوعاتهم³⁶. ويقسم الصناع من حيث نوعية العمل إلى فئتين الأولى تشمل المشتغلين بأجرة وهم الصناع الذين يشتغلون في مؤسسات دار الخلافة وفي دور الضرب أو في محلات التجارة الكبيرة والثانية ممن يشتغلون لحسابهم الخاص ويشمل ذلك المبتدئين أيضا، حيث كان بعض الصناع في العصر العباسي يعملون في حوانيتهم الخاصة بينما كان البعض يعمل بأجرة يومية عند أصحاب الدكاكين³⁷.

وقد اعتبر الحرفيون والصناع فئة نشطة في المجتمع العباسي على اختلاف عناصرهم وطوائفهم وكان أفراد كل صنعة أو حرفة يتكثرون من أجل تنظيم مصالحهم المشتركة من ناحية والدفاع عن تلك المصالح من ناحية أخرى، وهؤلاء عاش معظمهم مستوى معيشة متوسطة في المدن، وقد ساهموا بدور فعال وكبير في الحركات التي قامت ضد الدولة العباسية أملا في تحسين أوضاعهم الاقتصادية³⁸. وأصبحت النسبة إلى الصنعة أو الحرفة فقد ذكر الجيهشياري³⁹ أن الأنساب تمنع من الاكتساب وأن الصناعة نسب.

وكانت للحكومة مصانع واسعة كدور الطراز التي تصنع البنود والأعلام والملابس الرسمية مثل دور السكة وضرب النقود وهناك مصانع أهلية كبيرة كمصانع الزجاج ومصانع النسيج⁴⁰.

³² - اليعقوبي، المصدر السابق، ص 242-243. سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، ط 2، بيروت، 1967، ص 200.

³³ - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، ط 1، بيروت، 1406هـ/1986م، ص 56.

³⁴ - يذكر أبو شجاع أنّ الوزير محمد بن الحسن بن صالحان حين شكاه له الناس سوء الحالة وارتفاع الأسعار "رتب نقل الغلات من بلاد فارس في البحر وجد في حملها من كل بلد". أنظر: ذيل كتاب تجارب الأمم، مطبعة التمدن، 1916، ص 137.

³⁵ - حورية عبده سلام، الحياة الاجتماعية في العراق زمن البويهيين، دار العلم العربي، ط 1، القاهرة، 2008، ص 51.

³⁶ - إخوان الصفا، المصدر السابق، ج 1، ص 217.

³⁷ - إبراهيم أيوب، ص 226، إبراهيم سلمان الكروي، المرجع السابق، ص 91.

³⁸ - عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 55.

³⁹ - الوزراء والكتاب، ص 269.

⁴⁰ - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي، مطبعة السعادة، ط 1، مصر، 1931، ج 3، ص 143.

وذكر اليعقوبي⁴¹ عند كلامه عن أسواق بغداد فقال (ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم، وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبقته).

وكان في بغداد العديد من الأسواق المنسوبة إلى أصحاب المهن والصناعات مثل أسواق الصيادلة وأصحاب المدهون والخزائين والجوهرين وأسواق الحناء والأشنان، والسماكين وأصحاب الكاغد وأصحاب البغال والبزائين، وكان للسلاح سوق خاص يسمى سوق السلاح، أما أهم أصحاب الصنائع فهم الصباغة والخياطون والقصارون والصفارون والفرانون، والأساكفة والحدادون والرفاؤون والمطرزون والنجارون والوراقون والعطارون.⁴²

وعندما اتسعت مدينة بغداد ازداد نشاط الحرف واتسعت مجالاتها إضافة إلى اختصاص كل حرفة بسوقها وظهرت تنظيمات تعبر عن تماسكهم وتعاونهم فصار يشار إليهم بـ "الأصناف" و "أصحاب المهن" و "أهل الصنائع" وكان كل أهل صنعة يعتزون بها ويتعصبون لها اتجاه غيرهم من فئات المجتمع الأخرى وحتى اتجاه الأصناف الأخرى.⁴³ وكان للأصناف في العصر العباسي موقفهم ضد السلطة لحماية أعضاء الصنف من التعسف ففي سنة 305هـ/917م وثب أهل الأسواق في البصرة وحاصروا أميرها لأنه فرض ضرائب على إنتاجهم مما اضطر الخليفة المقتدر إلى عزله.⁴⁴

ومن الملاحظ أنّ الانتساب إلى المهنة شاع في ألقاب الناس خلال العصر البويهي، بجانب النسبة إلى المدينة أو القبيلة فالثعالبي لقب كاتب ومؤرخ مشهور من مؤرخي العصر البويهي هو أبو منصور عبد الملك المتوفى سنة 429هـ/1037م، والرفاء لقب شاعر مشهور ترك حرفته واتصل بالأمراء والوزراء ومدحهم بروائع شعره.⁴⁵

وقد ظهر في ذلك العصر إلى جانب الصنائع عاملات كنّ يزاولن مهناً مختلفة بالإضافة إلى قيامهن بأعباء بيوتهن من طبخ وغسل، كاشتغالهن بأعمال الغزل، والبعض كخبايزات في بيوت الموسرين لقاء أجر معلوم.⁴⁶

3- الزراعة: وهم سكان القرى في العراق، كانوا يشتغلون بالزراعة وفلاحة الأرض، والمعلومات عنهم قليلة وخاصة فيما يتعلق بطرق حياتهم اليومية وعاداتهم الاجتماعية نظراً لعدم اهتمام المؤرخين بهذه الناحية، ولقد كانت هذه الفئة من العامة تمثل الغالبية العظمى من سكان العراق في العصر العباسي الأول، ويبدو أنهم كانوا من غير العرب بدليل أن الأراضي الزراعية الشاسعة كانت بيد رجالات من العرب وهذا ما أشار إليه التنوخي⁴⁷ في قوله "أن العرب ملكوا الضياع والأراضي وزرعوا الأرض ما لا يتجاسر الأكرّة على زراعته وطولبوا بالخراج".

وإن العبيد الزنج الذين جلبهم العباسيون وبقياء الزط الذين جلبهم الحجاج هم الذين اشتغلوا بالزراعة⁴⁸، وحسب رأي بعض الباحثين أنّ المعلومات عن الفلاحين قليلة في العصر العباسي خاصة فيما يتعلق بحياتهم اليومية وعاداتهم الاجتماعية ويعود ذلك إلى عدم اهتمام المؤرخين بهذه الناحية.⁴⁹

⁴¹ - البلدان، ص 239

⁴² - الصولي، أخبار الرازي بالله والمتقي لله أو تاريخ الدولة العباسية من سنة 322 إلى سنة 333هـ من كتاب الأوراق، نشره ج هيوث، دار المسيرة، ط 3، بيروت، 1983، ص 68.

⁴³ - الصابي، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، مراجعة وتقديم حسن الزين، دار الفكر الحديث للنشر، بيروت، 1990، ص 14.

⁴⁴ - الدوري، مقدمة، ص 67.

⁴⁵ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 4، ص 67. ابن العماد، شذرات الذهب، ج 3، ص 246-247.

⁴⁶ - ابن الجوزي، المنتظم، ج 11، ص 384. الغزالي، إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة كريات فوتر سماراغ أندونيسيا، ج 2، ص 32. صباح إبراهيم سعيد الشخيلي، الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها، (د م)، (د ت)، ص 165.

⁴⁷ - الفرغ بعد الشدة، تح عبود الشالحي، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م، ج 1، ص 131.

⁴⁸ - حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، ط 5، (د ت)، ص 192.

⁴⁹ - بدري محمد فهد، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1967، ص 86.

وقد اهتم الخلفاء العبّاسيون بطبقة الزراع وعملوا على عدم إرهاب المزارعين بالضرائب، فقد أمر الخليفة العبّاسي أبو جعفر المنصور بإلغاء الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الحنطة والشوفان ووضع محلها نظام (المقاسمة) وبموجبه تدفع الضرائب نوعاً بنسبة خاصة من المحصول، وعند مجيء الخليفة المهدي (158-169هـ/775-785م) للحكم اتبع النظام نفسه⁵⁰.

وكان ديوان الخراج في عهد الخليفة المهدي يقوم بالإنفاق على صيانة أجهزة الري وحفر قنوات جديدة وتقوية سدود الأنهار خاصة في مواسم الفيضانات، فقد حفر الخليفة المنصور نهر شيلي وأتمه المهدي، كما كان المنصور مهتماً بالخراج في السواد وحفرت الخيزران زوجة المهدي وأم الرشيد نهر الريان في نواحي الأنبار وحفر الرشيد نهر القاطول وحفر الخليفة المتوكل قناة كبيرة سنة 245هـ/859م عمل فيها 12 ألف رجل⁵¹.

ودعا أبو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد بأن تقوم الدولة عن طريق بيت المال بكري الأنهار التي تأخذ من دجلة والفرات وسد البثوق وهي ما يخرقه الماء في جانب النهر وإصلاح المسنجات وهي السدود التي تبني في وجه الماء على ضفتي دجلة والفرات⁵².

إلا أنّ الزراعة ضعفت في السواد بسبب ظهور حركة الزنج حيث أتلقت حروبهم الأراضي الزراعية، وهذا ما أدى إلى هجرة سكان السواد إلى بغداد وفقدان الأمن⁵³.

وهؤلاء الزنوج كانوا عبيدا جلبوا من الصومال وزنجبار بأسعار رخيصة ويعملون بصورة جماعية في نواحي البصرة وقد كانوا يقومون بإزالة ملوحة التربة دون أجور إلا ما يأكلونه من سويق وتمر⁵⁴، وكانوا يعيشون ظروف معيشية لا يحتملها بشر في أكواخ فقيرة صنعت من القصب وأوراق النخيل، لذا اعتبر البعض أنّ حركة الزنج تمثل ثورة الفلاحين على الإقطاعيين أصحاب الملكيات الواسعة حيث يعمل فيها هؤلاء الزنوج الفلاحين بالسخرة إذ أصبحوا رقيق الأرض⁵⁵.

وقد ظل الفلاح خلال العصر البويهي يعمل في الأرض دون أن يهنأ بخيراتها، فقد كانت غالبية الأرض مملوكة أو مقطوعة لكبار رجال الدولة من القواد والكتّاب، الذين اهتموا بجمع المال ومحاسبة الوكلاء والجباة حرصاً على الدخل دون الاهتمام بحالة الفلاح أو محاولة رفع مستواه، بل إنّ أصحاب الإقطاعيات من القواد والأمراء كثيراً ما ردّوا إقطاعاتهم التي خربت وعوضوا عنها، جرياً وراء المال فخرّبت الأراضي وتحمل الفلاح وحده الخسارة⁵⁶.

4- الشطّار⁵⁷ والعيّارون⁵⁸: وهم عبارة عن تكتل اجتماعي ظهر في نهاية القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي، وشكّل هؤلاء جزءاً مهماً من الأحداث التاريخية لمدينة بغداد في العصر العبّاسي امتد إلى القرن السادس للهجرة/الثاني عشر

⁵⁰ - الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت)، ص 221

⁵¹ - الطبري، المصدر السابق، ج 9، ص 212. الجهشيري، المصدر السابق، ص 63

⁵² - كتاب الخراج، دار المعرفة للنشر، بيروت، (د ت)، ص 110

⁵³ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1987، م 5، ص 262. فبهى عبد الرزاق سعد، المرجع السابق ص 99

⁵⁴ - الطبري، تاريخ الرسل، ج 9، ص 416. يوسف العش، تاريخ عصر الخلافة العباسية، ط 1، مراجعة محمد أبو الفرج العش، دار الفكر، دمشق، 1982، ص 121

⁵⁵ - محمد نجيب أبو طالب، الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، تقديم الطاهر لببيب، دار المعارف للنشر، تونس، 1990، ص 205

⁵⁶ - الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص 41. الصابن، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص 134. وقد وصف المقدسي سياسة أمراء بني بويه في الإكثار من الضرائب والرسوم بقوله إنّ "لهم سياسة عجيبة ورسوم ردية". أنظر: أحسن التقاسيم، ص 400

⁵⁷ - الشطّار: جمع مفردا الشاطر وهو الشخص الذي أعيا أهله خبثاً، وقد شطر يشطر شطارة وشطر أيضاً من باب الظرف. أنظر: الرازي، مختار الصحاح، ص 142

⁵⁸ - العيّارون: يعرف العيّار في اللغة بأنّه الرجل كثير الحركة، وذكر الفيروزآبادي أنّ العيّار الكثير المعية والدّهابة. أنظر: القاموس المحيط، تح مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط 8، 1426هـ/2005م، ص 98، أما كتب التاريخ فقد اختلفت

الميلادي، وقد اختلف المؤرخين في مواقفهم منهم، فمنهم من وصفهم باللصوصية مستندا إلى أحداث السرقة والحرائق والفتن التي سببوها، وآخرين يجدونهم طائفة ظهرت بسبب التباين الاقتصادي وأن حركتهم موجّهة ضد التجار وأهل اليسار⁵⁹.

والقصد أن العيّارين وإخوانهم الشطّار صعاليك من جهة ودراويش من جهة أخرى، والصعاليك كلمة عربية أصلها صعلوك وهو الفقير المغير الفاتك، وقد اختص بكلمة الصعاليك ذؤبان العرب ولصوصها في الجاهلية ومن هؤلاء الخلعاء والأعرّبة والفقراء وغيرهم، وانسلخت كلمة شاطر عن معناها الاصطلاحي كصعلوك أو دراويش وأصبحت تطلق في مجال الإعجاب والإطراء⁶⁰.

وإنّ لحركة العيّارين والشطّار جذورا تاريخية قبل ظهورها فعلا ترجع إلى رغبة هذه الطبقة المحرومة ماليا لأخذ الثأر من المثرين، وإنّ وضعهم هذا واستمرار حركتهم يوضح أنّهم يمثلون حركة اجتماعية ثورية بين العامة ظهرت نتيجة التباين الاقتصادي من جهة وسوء الوضع المعيشي للعامة من جهة أخرى، ويدخل ضمن هذه المجموعة أهل الصنائع وباعة الطرق وأهل السوق، فكانت ثوراتهم موجّهة بشكل أساسي ضد الطبقة الثرية والتجّار في الأسواق وضد السلطة وممثلها⁶¹.

ويرى آخرون⁶² أنّ العيّارين والشطّار هي الفئة الفقيرة من طبقة العامة المحرومة ففي الوقت التي كانت تعيش فيه الطبقة الخاصة حياة ترف إلى درجة كبيرة وازدهار النشاط التجاري والمالي في الدولة، كانت ظاهرة الفقر والحاجة تزداد في صفوف طبقة العامة، لذلك بدأت تقوم تجمعات بشرية فقيرة تعاني غلاء المعيشة ويمزقها الجهل والتشرد ولذلك لم تجد لها مجال لتحسين أوضاعها سوى الأعمال المهنية وزاد فقرها بعد أن تركت أعمالها الزراعية في الريف، لذلك نشأ في حياة الكثيرين منهم فراغ قاتل وتسكع مستمر فسيطرت البطالة وبدأ الشعور بالنقمة على المحظوظين في المجتمع يزداد فبقيت هذه الطبقة على هامش المجتمع يتقاسمها الجهل والمرض والحاجة.

وقد ظهرت طبقة العيّارين أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون وبالذات أثناء حصار بغداد سنة 196هـ/811م من قبل جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين حيث استنجد الخليفة الأمين بهؤلاء للدفاع عن العاصمة بغداد بعد أن عجز جنوده في الدفاع عنها عندما صار جيش المأمون على أبوابها، ويذكر الطبري⁶³ أن الأمين رأى قوما ليس عليهم لباس الحرب والجند ولا عليهم سلاح فأمرهم أن يأخذوا من خزائن السلاح حاجتهم، وقد انتهبت الغوغاء سلاحا كثيرا وخزا، وكذلك قام السجناء بفتح سجونهم وخرجوا منها وكثرت الفتن واختلت الأمور بحيث أصبح الفاجر عزيزا والمؤمن ذليلا.

فيما أطلقته على العيّارين فهم يسمّون في بعض الأحيان الرعاع والأوباش والطرّادين. أنظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج10، ص181. وقد ازدادت أعدادهم نتيجة ضعف الدولة حتّى أصبحت ظاهرة فرضت نفسها على المجتمع العراقي وعرفت لأصحابها صفات مميّزة بأقوالهم وأفعالهم واستمرت هذه الفئة تؤكّد وجودها في فترات الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي والقلق الاجتماعي. أنظر: ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، تح طه عبد الرؤوف سعد، الكليات الأزهرية، القاهرة، (د ت)، ص46. المسعودي، مروج الذهب، ج8، ص164 وقد بلغوا من الكثرة في المجتمع العراقي أن قال عنهم المقدسي إنهم "إذا تحركوا ببغداد أهلكوا". أنظر: أحسن التقاسيم، ص130. وكان العيّارون يضمّون في صفوفهم أجناسا وطوائف مختلفة فمنهم العرب والأكراد والفرس والترك. أنظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج2، ص88. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص222.

⁵⁹ - محمد أحمد عبد المولى، العيّارون والشطّار البغدادية في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، ط2، الإسكندرية، 1990، ص31.

⁶⁰ - نفسه، ص34.

⁶¹ - عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص77-79.

⁶² - حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، المرجع السابق، ص192.

⁶³ - تاريخ الرسل والملوك، ج9، ص416.

ويبدو أنَّ الخليفة الأمين لم يكن مرتاحاً لهؤلاء العياريين رغم دفاعهم عن بغداد وكان يعتبرهم عدواً له شأنهم شأن جنود المأمون المحاصرين لهلاًسيماً إذا علمنا بأن عددهم قد قارب المائة ألف⁶⁴، وبذلك يورد ابن الأثير⁶⁵ كلاماً على لسان الخليفة الأمين إذ قال "وددت أنَّ الله قتل الفريقين جميعاً فأراح الناس منهم فما منهم إلَّا عدولي أمَّا هؤلاء - يقصد العياريين- فيريدون مالي وأمَّا أولئك- جيش المأمون- فيريدون نفسي"⁶⁶.

وقام الخليفة المأمون سنة 210هـ/825م بإعدام أربعة من شطار بغداد المحبوسين وصلبهم على الجسر لأنهم شغبوا وأرادوا ثقب سجن المطبق والخروج منه لكن المأمون خرج إليهم وقبض عليهم ثم أعدمهم⁶⁷، ويذكر المسعودي⁶⁸ أنَّ لهؤلاء العياريين تنظيمات خاصة بهم فكان عريف على كل عشرة منهم، ونقيب على كل عشرة عرفاء، وقائد على كل عشرة نقباء وأمير على كل عشرة قواد.

وكان نشاط العياريين والشطار يزداد عند حدوث الاضطرابات السياسية في الخلافة العباسية ففي عصر النفوذ التركي وعندما انتهت خلافة المنتصر بالله سنة 248هـ/862م أيد الأتراك انتقال الخلافة إلى ابن عمه المستعين بالله بدلاً من انتقالها إلى أخيه المعتز بالله فلم يحظ هذا الاختيار برضا طبقة العياريين في سامراء ممَّا أدى إلى حدوث الاضطرابات في البلاد فهاجم العيارون الأتراك ونهبوا الكثير من دوابهم ودروعهم والتراس والرمح⁶⁹.

ويظهر دور العياريين والشطار في الدفاع عن بغداد مرات عدة بأعداد كبيرة فنراهم يقاتلون ببسالة دفاعاً عن بغداد حيث حاصرهم الجيش التركي القادم من سامراء أثناء الصراع بين الخليفة المستعين والمعتز سنة 250هـ/864م⁷⁰، فقد لجأ نائب بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر إلى العياريين لطلب المعونة شأنه في ذلك شأن الخليفة الأمين واعتبرهم ابن طاهر جنود منظمين وعاملهم على هذا الأساس حيث فرض لهم الأرزاق ووضع عليهم عريف (قائد) منهم اسمه ينتويه وأمر بتزويدهم بالسلاح⁷¹.

وقد استعانت الدولة العباسية للمرة الثالثة بالعياريين في حربها مع الزنج عندما ظهرت حركتهم -أي الزنج- في خلافة المهدي (255-256هـ/869-870م) وذلك في سنة 255هـ/869م بل إنها استقدمت طائفة من الري وعيّنت الدولة عليهم قائداً اسمه جعلان العيار، وعندما ضغط صاحب الزنج بقواته على البصرة خرج مدداً لأهلها ضد الزنج⁷².

ويرى محمد أحمد عبد المولى⁷³ أنَّه على الرغم من أنَّ حركة الزنج قامت نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية الأمر الذي كان يوجب أن ينظم العيارون لهم ويناصروهم إلَّا أنَّهم قد وقفوا ضدهم وحاربوهم وربما يعود ذلك إلى سياسة الدولة التي أدركت هذا الأمر فعملت على تقريب العياريين المتأخمين للعاصمة سامراء وأمرت لهم بأرزاق لضرب الزنج وبذلك استطاعت التفريق بينهم.

وازداد نشاط العياريين في خلافة المقتدر بالله (295-320هـ/908-932م) وذلك لكثرة الاضطرابات التي حدثت في عهده وتعرضت دور بغداد إلى النهب والسلب على أيديهم، وعادوا للدفاع عن بغداد أثناء اجتياح معز الدولة البويهية

⁶⁴ - إبراهيم أيوب، المرجع السابق، ص 98

⁶⁵ - الكامل في التاريخ، ج 5، ص 262

⁶⁶ - إبراهيم أيوب، المرجع السابق، ص 98

⁶⁷ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 9، ص 212. الجهشيارى، المصدر السابق، ص 63

⁶⁸ - مروج الذهب ومعادن الجواهر، تج محمد معي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للنشر، بيروت، 1987، ج 3، ص 415

⁶⁹ - عبد اللطيف عبد الرحمن الراوي، المرجع السابق، ص 8

⁷⁰ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 397

⁷¹ - المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 417

⁷² - ابن طيفور، المصدر السابق، ص 98

⁷³ - العيارون والشطار البغدادية في التاريخ العباسي، ط 2، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، (د ت)، ص 89

لبغداد سنة 334هـ/946م إذ استعان أمير الأمراء ابن شيرزاد بالعبّارين والعامّة لمحاربة معز الدولة⁷⁴، وإنّ آخر ذكر للعبّارين والشطاري في بغداد كان في خلافة آخر الخلفاء العبّاسيين المستعصم بالله (640-656هـ/1242-1258م)⁷⁵.

5- **الخدم والرقيق:** ويحصل عليهم عن طريق البيع والشراء والأسر في الحروب، أو ضمن واردات الدولة وهدايا الخلفاء والأثرياء، ففي سنة 282هـ/895م وردت إلى المعتضد بالله هدية بمئة خادم وخمسين جارية، وأهدى صاحب المغرب إلى المكتفي سنة 291هـ/903م هدايا لها قدر جليل فيها مئة خادم ومثله من الجوّاري، وضم بلاط المكتفي بالله عشرة آلاف خادم، وبلغ عددهم زمن المقتدر أحد عشر ألف خادم⁷⁶.

ومن الرقيق من يأتي إلى مركز الخلافة العبّاسية ضمن واردات الدولة كالذي حدث سنة 240هـ/854م عندما امتنع أهل الصعيد بمصر من دفع ما كان مفروضاً عليهم وهو في كل سنة خمسمائة نفر من العبيد والجوّاري⁷⁷، ولعل طرق الأسر في الحروب والشراء والبيع من أكثر الطرق شيوعاً وجلباً للرقيق، ففي وقعة عمورية سنة 223هـ/837م كان ينادي على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة، ولهذا فقد عجت بهم قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء، وامتألت بهم قطائع وأماكن بغداد حتّى نسبت بعضها إلى الرقيق كدار الرقيق من جهة باب الشام، وباب النخاسين في بداية شارع الكرخ الذي يتجمع فيه باعة الرقيق⁷⁸.

وقد كان من نتائج ازدهار تجارة الرقيق المربحة انتشار الأسواق لبيعهم في بغداد والبصرة ونواح أخرى، وقد عرفت مثل هذه الأسواق بـ "أسواق النخاسين"⁷⁹.

ومع سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي كان عليها الرقيق عموماً، فإنّ بعضاً منهم قد لقي حظوة عند الخلفاء العبّاسيين ممّا أغضب النّاس، وقد نظر أبو عيسى الوراق⁸⁰ إلى خادم خرج من دار الخليفة بنجائب تقاد بين يديه بجماعة تركض حواليه فرفع رأسه إلى السماء وقال: "أوحذك بلغات والسنة وأدعو إليك بحجج وأدلة وأنصر دينك بكل شاهد وبينة ثمّ أمشي هكذا عارياً جائعاً ومثل هذا الأسود يتقلب في الخز والوشى والخدم والحشم والحاشية والغاشية"⁸¹.

ومن الرقيق من أصبحن أمهات أولاد عند الخلفاء العبّاسيين، ومنهن من تدخلن في السياسة كمرجل أم المأمون وهي أمة فارسية، ومارده أم المعتصم وهي أمة تركية، وقراطيس أم الواثق، وشجاع أم المتوكل، وقبيحة زوجة المتوكل والسيدة أم المقتدر⁸².

وقد تصرف بعض الخدم تصرفات لا تخلو من الغرور والعجرفة أساءت إلى سمعة أسيادهم وملاكهم فقد ذكر التنوخي⁸³ أنّ أحد خدم الموفق خمر وترنم من شدة السكر فصادفه أحد القضاة فاعتدى عليه وأهانته أقبح اهانة، فشاع خبره بين الناس وطالبوا الموفق بوضع الحد على غلامه هذا.

⁷⁴ - المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص411-412

⁷⁵ - إبراهيم أيوب، المرجع السابق، ص56

⁷⁶ - ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للنشر، بيروت، 1421هـ/2000م، ص536. بدري محمد فهد، المرجع السابق، ص18. محمد أحمد عبد المولى، المرجع السابق، ص42

⁷⁷ - بدري محمد فهد، المرجع السابق، ص19

⁷⁸ - ابن الأثير، المصدر السابق، م5، ص509

⁷⁹ - نفسه، ص510

⁸⁰ - أبو عيسى الوراق: هو أبو عيسى محمد بن هارون الوراق البغدادي من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة، وقد توفي بالرملة سنة 247هـ/861م. أنظر: ابن النديم، الفهرست، تج. ناهد عباس عثمان، دار قطري بن فجاعة، ط1، الدوحة، ص473. المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص55

⁸¹ - ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر بيروت، (د ت)، ص209

⁸² - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1929م، ج2، ص295

وهكذا ظل الرقيق مسلوبي الحرية الشخصية وظلت مشكلتهم واحدة من المشاكل المهمة التي عانى منها المجتمع الإسلامي عامة ومجتمع القرن الثالث الهجري خاصة مع أن الإسلام حض على فك رقابهم⁸⁴.

ثالثاً: طعام فقراء العامة :

كانت مأكّل الفقراء من الناس رخيصة وبسيطة تتكون من الخبز، فكان الفقراء والزهاد من الصوفية يأكلون خبز الحنطة وخبز الشعير⁸⁵، وأما أغلب أطعمتهم فتعتمد على الحبوب خاصة الباقلاء، وكذلك الباذنجال فمن الفقراء من يشتري ماء الباقلاء لينقع فيه رغيفا ويقتات به، ومن الفقراء من يأكل ممّا يتصرف به الناس خاصة الذين اتخذوا المساجد والربط أماكن سكنى لهم⁸⁶.

رابعاً: دور العامة:

إنّ غالبية العامة ببغداد لم يتوفر لهم ما توفر للطبقة الخاصة المترفة من رفاهية في العيش وسعة الدور وفخامة البناء، إلّا أنّ أغلب تلك الدور التي يسكنها عامة الناس كانت بسيطة البناء، فكانت تلك الدور إمّا ملك يسكنها مالكها أو مؤجرة لغيره، ولم يكن إيجار البيوت ميسراً لفقراء العامة، فقد يشترك عدة أفراد في إيجار دار وسكنها، ومنهم من بنا أكواخاً للسكن خاصة المعدمين والزهاد من الصوفية⁸⁷.

وكانت دور العامة ببغداد تبنى على مثال واحد، فتبنى في الغالب من طابق واحد، أو طابقين، لها سطح مكتمل الخدمة والتجهيز لأنّه من الأمور المهمة لسكان بغداد خاصة في الصيف حيث اعتاد الناس النوم فوقه ليلاً وكلما كان السطح أكثر ارتفاعاً، كان ذلك أفضل لأنّه يكون أكثر عرضة للهواء وبذلك يكون أبرد⁸⁸.

وأما داخل الدار فإنّه أول ما يلي الداخل للدار بعد الباب الخارجي دهليز مسقوف يصل باب الدار بالصحن الذي يتوسط الدار فمن الناس من يهتم بدليلز الدار ومنهم من لا يعطيه أهمية فقد يجعل فيه كنيفاً "مستراحاً"، وفي نهاية الدهليز في بعض الدور هناك باب للصحن سمي باب الصحن، وتكون غرف الدار مشرفة على الصحن وهي غرف مربعة متجاورات للسكن والمرافق المنزلية، ولم يكن هناك عدد محدد للغرف في دور بغداد فقد كان عددها بحسب الحالة المالية لصاحب الدار، كما كان في معظم الدور أفنية صغيرة ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية أيضاً⁸⁹. وكانت دور العامة تحتوي على سراديب والتي كانت أحد وسائل التهوية والتبريد في فصل الصيف حيث اتخذها الناس للسكن في فصل الصيف غير أنّ ميسوري الحال من الناس كانوا يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة من الخيش أو بيت الخيش الذي يبلونه بالماء وهو من الأمور المألوفة ببغداد، ومنهم من يتخذ السرداب مخبأً يختبئ فيه الفارون من الحكومة⁹⁰.

⁸³ - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج2، ص158

⁸⁴ - ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص159

⁸⁵ - عادل معي الدين الألوسي، الرأي العام في القرن الثالث الهجري 198هـ-295هـ/813-907م، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، 1987، ص108

⁸⁶ - نفسه، ص109

⁸⁷ - البهقي، المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، (د ت)، ص574

⁸⁸ - ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، تح محمد شريف سكر، دار احياء العلوم، بيروت، 1409هـ/1989م، ص51

⁸⁹ - ابن الجوزي، أخبار الأذكىاء، تح محمد مرسى الخولي، مطابع الأهرام، 1970م، ص10

⁹⁰ - التنوخي، نشوار المحاضرة، ج1، ص15، عبد الرحمن بن نصر الشيزري، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1365هـ/1996م، ص14

وكذلك كانت الدور مزودة بميازيب⁹¹ لإخراج ماء المطر من على سطح الدار في فصل الشتاء، ومنهم من يجعل عوضاً عنها مسيلاً محفوراً في الحائط يجري فيه ماء السطح ويقذف بالمياه إلى الطريق⁹².

خاتمة:

يتضح من خلال هذا البحث أنّ طبقة العامة هم السواد الأعظم من سكان مدينة بغداد، وقد كانوا من أصول بشرية متعددة فهم خليط من العرب والفرس والأتراك والأكراد والبربر وغيرهم. كما يتبين أنّ الذين ينتمون إلى العامة هم أهل المهن والصناع والتجار والخدم والفلاحون والجنود واللبصوص والشطار والعيّارين.

وكانت هذه الطبقة مغلوب على أمرها تميزها مظاهر الطبقة الفقيرة وهي الفقر والفاقة والحاجة الملحة فهي في سعي دائم وراء لقمة العيش ومع ذلك فإنّ هذه الطبقة كان لها دورها في المجتمع رغم أنّ طبقة العيّارين والشطار كانت مصدر إزعاج لغيرها من الطبقات فهؤلاء اللصوص وقطاع الطرق كانوا يضطرون الحكام على الإصلاح حيث أنّ الدولة العباسية كانت تتقرب إليهم في أوقات ضعفها اتقاء لشركهم.

وأنّ غالبية العامة ببغداد لم يتوفر لهم ما توفر للطبقة الخاصة المترفة من رفاهية في العيش وسعة الدور وفخامة بنائها.

وأنّ هذه الطبقة تميزت بالطابع الثوري ضد الدولة ومن أشهر ثوراتهم ضد الخلافة العباسية الزنج والقرامطة.

⁹¹ - الميازيب: جمع مفرد مزاب ويقال له في بعض اللهجات مزاب أو مزرب كما في العراق، ويعني في العمارة مجرى للماء يلزمه العناية بالمبول اللازمة لأجل سيلانه، وهو عادة ما يستعمل لتصريف مياه المطر، وقد استعملت ألواح لذلك ألواح المعدن أو الفخار. أنظر: معمار علي ثويني، المرجع السابق، ص 678.

⁹² - ولیم الخازن، الحضارة العباسية، دار المشرق، ط 2، بيروت، 1986، ص 36.